كتاب
قراءات فى الفكر الإسلامى
تأليف
عبدالرحمن الشرقاوى

قراءات فى الفكر الإسلامى

ألف هذا الكتاب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى.

ليس أكبر كتبه بمقياس عدد الصفحات ولكنه من أعمقها وأرجحها بنفاذ النظرة وحرية الرأى ونكائه.

يتساءل المؤلف : ما هو الإسلام؟ أهو دين أم ثورة؟

ويجيب إن الذين يطرحون هذا السؤال لايقدرون الإسلام حق قدره فما ينبغى أن يضعوا الثورة فى مواجهة الدين، أو يعارضوا الدين بالثورة.

لقد جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فهو ثورة على أوضاع مختلفة.. ثورة غيرت أسس المجتمع، وأشكال العلاقات الاجتماعية، ولكنها ثورة تنبع من القواعد التى قامت عليها أركان الدين: من شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

إنه دين الحرية.. حرية الرأى وحرية الاختيار.. وإن الشعور بالحرية الذى يضىء جنبات المؤمن الورع ينبع من ثقته بالعدل، ومن إيمانه بأنه قوى بطاعة الله، غنى بالإيمان، ومن هنا تنبع فضائله الإنسانية.. ومجتمع تسوده الفضائل، قادر على أن يجعل الحياة تستحق أن تعاش.

ويضرب المؤلف مثلا بالصيام.

إنه ليس الجوع والعطش. إنه شعور متفوق يحس معه الصائم أن خضوعه لله عزة وأنه إذا قهر نفسه، واستغنى عن كل ما يشتهيه، أصبح قادرا على أن يقهر كل ما يستعبده، ومن هنا تنبع حريته، وعظمته أيضا.. إنه قادر على أن يتخذ موقفه الثورى من كل ما يعوق التقدم الإنسانى.

لقد احترم الشخصية الإنسانية.. أقول حتى كلمة «عبد» فى الإسلام منتهى الحرية، لأن «عبد الله» تنفى أن يكون عبد غيره ممن خلق.. من عبيده.

لقد احترم الإسلام، العقل حين جعل التفكير كما يقول أستاذنا العقاد، فريضة إسلامية.

لقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيا، ولكن التجربة الدينية بصيرة.. انفتاح.. التجربة الدينية لاتعادى العقل، ولكنه أبعد منه مدى..

كان التوحيد الإسلامى هو المحور الثقافى.
توحيد الذات، فلا انفصام ولا تشقق.
توحيد المجتمع، فيبرأ من الشيع والتطاحن.
توحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله.

ومن هنا يأتى التدين فى الإسلام، تفسيرات وجدانية ارتفعت على لغو الكلام وعقم الجدل وأترعت بسلام وطمأنينة، هى حكمة قلب حقق عمليا معنى التوحيد ومعانى الرحمة والبناء وعز الكلام وأبهة الخلق المنطلق المطلق، وصمت الخاشع المستمع وهناءة المستمرىء السعيد.

عندما أرسل أبو بكر، الجيش تحت قيادة أسامة قال لجيشه: (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولاشيخا كبير ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقتطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له).

لقد شهر الإسلام السيف فى وجه الدولتين الكبيرتين فى إبان ظهوره.. وكانتا تتهددان وجوده الجديد.. وهما الروم والفرس ولكنه حين يشرع الحرب دفعا للظلم، يحوطها بالتشريع ويضع لها من التقاليد والحرمات ما يليق بدين الشرائع المثلى. فهو يحرم التمثيل بالميت أو قتل النساء والأطفال أو بقر البطون مما ترتكبه الحروب الحديثة، على الرغم من التشدق بحقوق الإنسان ومبادىء السلام.

كتب عمر رضى الله عنه إلى قائده سعد رسالةً ما أحوجنا إليها اليوم فى امتحان البقاء أو الفناء الذى تجتازه الأمة العربية اليوم، لتكون لنا دستورا على أرض المعركة.

(إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب.. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخطر عليهم من عدوهم.. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله.. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية، كان لهم الفضل علينا فى القوة.. وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون..) ثم مضت الرسالة ترسم للنصر، طريقه.

وحين قسم أبو بكر المال، سوى بين الناس فلكل حاجة يُسأل عنها ولى الأمر وعليه أن يشبعها، وهكذا سوى أبو بكر فى قسمة المال بين الحر والعبد، والسابقين إلى الإسلام واللاحقين، والذكر والأنثى فقال له أحد أصحابه: (يا خليفة رسول الله، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس.. ومن الناس أناس لهم فضل وسابقة وقدم فلو فضلت أهل السابقة والقدم والفضل) ؟

فقال: أما السابقة والفضل والقدم فأنا أعرفها وإنما ذلك شىء ثوابه على الله. وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة.

وهكذا أكد أول الخلفاء الراشدين إنسانية الإسلام وعدالة الإسلام فى الحرب والسلم.

أقول ومع هذا عدل عمر عن هذا الرأى أو قل ارتأى جديدا عندما ولى الأمر وكان الإسلام قد استحصد وثبتت قدمه على الطريق.. فآثر عمر فى مرونة، السابقين وأصحاب الفضل بفضل عطاء.

مرة أخرى أقول احترم الإسلام، العقل.. حتى النواهى الصريحة تسمح فيها الإسلام عند الضرورة.. من ذلك: قاعدة الضرورات تبيح المحظورات فالله وضع الحدود ثم قال:

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم).

ولم يطبق عمر رضى الله عنه حد السرقة فى عام المجاعة.

وفى فصل (الأرض ... ولمن؟)

يقول الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: كان لتوزيع الغنائم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة فصلتها الآية القرآنية: (واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).

(الأنفال ٤١)

وعلى هذا سار أبو بكر الصديق...

أقول ولكن عندما فتحت فارس ومصر رأى عمر إبقاء الأرض لأهلها العارفين بزراعتها مكتفيا بالخراج والجزية..

فعل هذا فى تفهم وتفتح حفظ على الإسلام قدرته على المواءمة والملاءمة والتجدد والتلاقى فى كل عصر يوجد فيه أشباه لفكر عمر.

ومن أمجاد الإسلام تركيزه على المساواة.

قبل مجىء الإسلام بقرون كان قانون حمورابى فى بابل، يقضى حسب المنزلة الاجتماعية للمتقاضين...

وبعد الإسلام بقرون استهدفت الثورة الفرنسية (المساواة) كواحدة، من ثلاث استحقت أن تراق فى سبيلها ما أريق من دماء.

ولكن الإسلام بقوة الكلمة المنزلة رسم المساواة وأرسى قواعدها ونفذها.

أورد المؤلف قصة اليهودى الذى احتكم وعلى بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين، فقال عمر لعلى: (قم يا أبا الحسن واجلس أمام خصمك.. ساو خصمك يا أبا الحسن).

فقام على فجلس أمام خصمه مساويا له، وقد غشيت وجه على كرم الله وجهه سهمة فلما انتهى النزاع وقضى عمر وانصرف اليهودى قال عمر لعلى: (أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك؟) ولكن على بن أبى طالب أجاب (كلا ولكنى كرهت أنك لم تسوّ بيننا حين قلت لى يا أبا الحسن) وأبو الحسن هو كنية على والنداء بالكنية تعظيم عند العرب. بهذه الروح عند الحاكم والمحكوم، أكد الفكر الإسلامى الحر، قاعدة المساواة أمام القضاء. إن الناس سواء فى الحقوق والواجبات، لتكون هذه المبادىء من بعد هدف الثورات الكبرى فى التاريخ الإنسانى.

ومن أقوى وأهم فصول الكتاب فصل (أسلوب الحكم) يقول الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى:

عزل على بن أبى طالب، الولاة الذين استباحوا أحوال الأمة. وقد بدأ عهده بأن ولى رجالا يعرف فيهم تقوى الله والتحرج من الإثم.

وأعلن أنه سيحصى عليهم أموالهم يوم يوليهم، ثم يحصيها عليهم بعد ذلك فمن وجد عنده زيادة، صادر الزيادة، وعاقب الوالى الذى أباح لنفسه الإثراء على حساب المسلمين أو التمتع بما ليس له.

ولى ابن عباس على البصرة وهو أحد أئمة التفسير وأحد كبار الفقهاء الذين يلجأ إليهم الناس فى أمور دينهم.. ولكنه حين أصاب من المال بدا له انتماؤه إلى أهل البيت، ولكن الخليفة الورع لم يتردد فى أن يعلن: «أن كل ما يمتلكه ابن عباس أو غيره ممن تولوا أمور المسلمين لا يحل له منه إلا ماكان يمتلكه قبل أن يولى الأمر، وأما ما زاد على ذلك فحق للمسلمين.

كما أن من حق المسلمين ألا يولى عليهم إلا الأصلح أخذا بسنة الرسول عليه السلام من أنه من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى غيره لقرابة أو مودة وهو يعلم أن هناك من هو أصلح منه فقد أثم.

هذا هو الإسلام فى أفقه الأعلى.

إن القرابة والودادة والإمامة فى الفقه والتفسير لم تغن عن ابن عباس شيئا عند التقى النقى على بن أبى طالب.

درس على حكام المسلمين أن يعوه.

ومع أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى استهل كتابه بالحرية والرأى فقد عاد وعقد للحرية فصلا مستقلا سجل فيه أن بعض المفكرين والفقهاء المسلمين الأوائل، رأى تأكيداً لحرية الإنسان وإعمالا لعقله الذى تخاطبه التكالف الدينية: أن **الإيمان الموروث ليس إيماناً صحيحا وأن من واجب المؤمن أن يتدبر بعقله ليهتدى إلى الإيمان.**

وإذاً فحرية الإرادة والاختيار والعمل والموقف شرط للتكليف .

ويذكرنا هذا بقول «إقبال» فيلسوف باكستان (إنك لاتؤمن بالقرآن حق الإيمان إلا إذا استنزلته عليك من جديد).

أي إيمان الفهم والاقتناع وليس شهادة الميلاد.

حين يقول الله جل شأنه (وشاورهم فى الأمر) فذلك تأكيد آخر على الحرية وإلا هل يستشار العبد؟ وهل يصدق المقيد فى الرأى؟

إذاً الحرية أساس للشورى

حتى الدين لا إكراه فى الدين

يقول الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى:

إذا كانت الحرية فى الإسلام من مقومات الإنسان، والتمتع بها حق له وممارستها واجب عليه، فالدفاع عن الحرية فى مواجهة الظلم واجب شرعى وليست حقا مشروعا فحسب.

والدفاع عن حرية الشعوب واجب دينى ومن هنا انتفض علماء وفقهاء في مواجهة حكام طغاة عبر العصور دفاعا عن حرية الأمة وينتظم فى سلك العلماء الأحرار الأبرار: أبو ذر الغفارى والإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وسلطان العلماء العز بن عبد السلام والإمام البويطى والسيد عمر مكرم وكوكبة من علماء الأزهر الشريف، ليس آخرهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وكم للأزهر من مواقف مضيئة فى الثورات الوطنية ثاروا على المماليك والحملة الفرنسية والانجليزية والخديوى توفيق.

تكلم الكتاب عن قيم العدل والتعفف عن مال الشعوب تكلم عن القدوة.

تكلم عن التسامح الدينى.

عن احترام المرأة احتراما أنجب «شهدة بنت أبى نصر» التى لقبوها نقيبة رجال الشرع لأستاذيتها.

لقد بلغ مقام العلم فى الإسلام أن قال الله تعالى فى كتابه الكريم (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا).

(نفر) للعلم وهو لفظ خاص بالجهاد...

وإذا كان العلم فريضة وفضيلة وجهاداً فى الإسلام فإن الجهل مسبة ومذمة ونقيصة.. ومن هذا الجهل العام وهذا تسأل عنه الحكومات الإسلامية فإنه واجبها ومسئوليتها إزاء الأمة التى حملتها الأمانة.

إن العلم حق للأمة يتقدم سائر الحقوق لأنه مناط سعادتها ووسيلتها النافعة إلى غيره من الحقوق وإلى الواجبات .

إن العلم واجب شرعى على الحكومات الإسلامية كما هو ضرورة تطور.

ويتساءل الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى فى الفصل الأخير من الكتاب : (من الذى يفسر لنا مبادئ الإسلام) .

ويجيب : (ما من دولة عربية – أرادت أم لم ترد – لاتحكم فيها المعاملات المدنية والتجارية قواعد الشريعة الإسلامية إما نقلا عن الشريعة مباشر، وإما بطريق غير مباشر، نقلا عن القوانين الأوربية، التى نقلت هى نفسها عن الشريعة الإسلامية. وهذا الوضع الأخير يبدو شاذا بحق.

إن ذلك لشىء عجيب، ولكنه هو الواقع فى الدول العربية التى نقلت عن القوانين الفرنسية أو الألمانية دون أن تدرى أن لديها الأصول كلها) .

الكتاب قراءات فى الفكر الإسلامى ذكية حصيفة عميقة.. هكذا يقرأ الإسلام ليتحقق للإنسان الاتزان النفسى والتكامل النفسى.

سئل يونج عن سر أزمة أوربا فى كتابه : The Undiscovered Self فقال: (هى ضياع الفرد) .

ولم يكن «يونج» وحده.. فقد رأى هذا أيضا «برنارد شو» فى كتابه (دليل المرأة الذكية) و «ديوى» فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism Old and New الذى أشار فيه إلى التشقق فى النفس الأمريكية، و Alexes Karelle الفرنسى فى كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» .

ويتساءل فلهلم Velhlim : لماذا نترجم عن الشرق ونتعرف على الشرق؟ إنها حاجة الأوروبى إلى الجانب الروحى فى نفس الإنسان..

ولكن هل نقدر، هذه الأيام، ديننا حق قدره؟ ليتنا نفعل...